أحمد غريب

عطفة الغريب

يتسرب شعاع شمس الألفية الجديدة دافئًا من إحدى ثقوب النافذة فيتبدد في الغرفة نوره، وتحل اليقظة مكان نوم حلو قد غرق فيه موسى الفتى الصغير الذي لم يتجاوز عمره الحادية عشرة، يفتح عينيه مستسلمًا لشعاعها الذي أخذ بالانحسار قرب وجهه شيئًا فشيئًا،

يحاول أن يقوم من سريره طاردًا كسله حينًا ومحاولاً إعادة نفسه تحت الغطاء حينًا باحثًا عن النوم مرة أخرى. مرت ساعة قد ترك فيها الفتى غرفته وبدأ في تحضير الفطور، فكان دوره في شراء أرغفة الخبز.

أخذ طريقه من عطفتهم الصغيرة تجاه الشارع الرئيسي إلى الفرن الآلي. لا يستوقفه فيه سوى هذا الرجل الذي أتى عطفتهم منذ مدة، لا أحد يعلم عنه شيئًا. تفاجأ الجيران ذات صباح به قابعًا تحت أحد جدران البيت القديم القائم على ناصية العطفة في ملابس متهالكة لا تكاد تستر أكثر مما تكشف، من عظام دقيقة وهيئة رثة ووجه شحيح يشمئز منه المارة وتتفادى من شخصه الأبصار، حين تتفاجأ به في طريقها فتضطرب عنه الرقاب.

فكان مثل البيت الماكث إزاءه لا أحد يعرف من أين أتى ومن صاحبه وهو في هيئته القديمة، وقد تآكلت جدرانه فظهر عنها أحجار متشبعة بالمياه فكادت أن تذوب.

قد سكن ركنًا بجوار صندوق للفضلات، وما لبث أن مر شهر أو شهران حتى أنشئ له بيت (خيمة) في هذا الركن، فقد اتخذ من أريكة ألقى بها أحد الجيران إلى جدار هذا البيت القديم سريرًا واضعًا بدلاً من الأرجل المكسورة منها عدة قوالب طوب حتى تستكين في مكانها. وبعمودين خشبيين وفرع شجرة ثبت عليهم ملاءة قد وجدها أيضًا مع الأريكة يستظل بها نهارًا وتحجب عنه البرد ليلاً.

عرض عليه أحد الجيران مرة أن يتخذ من بدروم السلم مسكنًا له لكنه رفض، وظل هكذا في مسكنه يغيب عنه حينًا حتى يظن الناس أنه قد ترك العطفة، لكنه ما يلبث أن يعود ثانية ويبني بيته من جديد بعد أن قد أزاله عمال النظافة حين أتوا لحمل القمامة.

يفترش الأرض وقد وجد من صندوق القمامة ما يسد جوعه. أخرج كوبًا ورقيًا فتح غطاءه ثم رفعه إلى فمه لتستقر بعض مما تبقى في جوفه، فيلقيه وتلتفت يده لتجد كوبًا آخر كان به أكثر، فشرب حتى تفتح ثغره عن ابتسامة رضا، ثم أكمل ليجد كسرة خبز محشوة بقطع دجاج مقلى بها بعض من أوراق الخس والطماطم، ينهال عليها بفمه مرة واحدة فتتطاير بقاياها تلحق بها يده وتعيدها مرة أخرى تحت أسنانه. ثم يمسح بكلتا يديه فمه وينفضها،

حين لمح الشمس تقترب بشعاعها الحارق إلى عينه زحف مبعدًا عنها يسند ظهره إلى الحائط يستريح من وجبته، ثم يرجع إلى سريره غارقًا في سبات لا يفيق منه إلا ليلاً غير مبالٍ بضوضاء المدينة المحيطة به وقد عزلته خيمته المتهالكة عن العالم.

يراه في عودته وهو يحمل أرغفة الخبز، يعطيه واحدًا فلا يمد يده، يتركه بجواره فيعود بعدها يلتهمه وقد اطمأن إلى اختفائه عنه. ثم يراه مبكرًا في ذهابه إلى المدرسة وقد ترك مكانه وبدأ جولته التي لا يعود منها إلا بعد الظهيرة حين يرجع من المدرسة فيجده شبه نائم في خيمته. ودائمًا ما كان يثير تساؤلات الجيران حتى سيطر ذكره على مجالسهم لساعتين أو أكثر غير قادرين على فك لغزه وهو الذي يأبى أن يتكلم فحسبوه أبكم. إلى أن شبت عركة بينه وبين أحد الأطفال الذي كان يلقيه بالحجارة وهو نائم، فقام من نومه مطلقًا السباب وسط دهشة الطفل والمحيطين.

مرت سنة وموسى يراقبه من بعيد، ترى ما تكون قصته؟

تمنى لو عرفها ولا يغرق في تلك الحيرة، لكنه لم يمكث كثيرًا، فقد اضطر والده للسفر إلى أحد دول الخليج وسط تهديدات قد تصيبهم بفقدان البيت أمام حياة قد يفقد فيها الأب دوره..

سافر الأب ثم لحقت به الأسرة حين استقر له الوضع هناك. مكثوا جميعًا ما يقرب من عشر سنوات، كل ما أنجزوه هو أن اشتروا شقتهم التي كانت إيجارًا قديمًا، تخلت دول الخليج عن أبيه فأصبح السكن مؤمنًا لكن العيش مجهول.

تغيرت عطفتهم كما تغيرت نظرتهم وهيئتهم، اختفى البيت القديم واختفى أيضًا ذاك الغريب وخيمته وأقيم مكانهما برج سكني كبير أسفله معرض للسيارات.

هنا رأى شبيهه، يأخذ طريقه إلى مكتب كبير في آخر زوايا المعرض، توحي هيئته للمار بأنه المدير أو صاحب المكان، بشرته الخمرية، عيناه الضيقتان، أنفه المدقق، اختفت لحيته المشعثة وشعره المجعد، أصبح أملس، اكتست عظامه الدقيقة بلحم فملأت بذلته المتناسقة المرتبة.

لم يصدق موسى ما رآه حتى التقطت أذنه بعضًا من ثرثرات وهمهمات الجيران بين بعضهم البعض.

سبحان مغير الأحوال.. قد اختفى خمس سنوات وعاد بعدها كما ترى.. فتحت له طاقة القدر.

تكاثرت الأقاويل بين أنه قد عثر على مال ذات يوم في صندوق القمامة، ومرة أنه وجد آثارًا تحت جدار البيت القديم، ومرة أخرى أنه قد ورث عن عائلته المجهولة مالاً كثيرًا.

وزرعت حوله حقول أسئلة ماتت مع الأيام، لكن نمت في صدر موسى ذات الأرض الخصبة.